الفكر الاقتصادي في المجتمعات الغربية القديمة

لقد نظر مفكرو الحضارتين اليونانية والرومانية إلى الأنشطة الاقتصادية من منظور أخلاقي ومجتمعي، مع التركيز على مسألتي الاستقرار والعدالة. لكن الفكر اليوناني تميز في هذا الاطار عموما بالبعد النظري والفلسفي، فيما ركز الفكر الروماني بشكل أكبر على الجانب القانوني والعملي.

أولا- الفكر الاقتصادي اليوناني

1- الخصائص الرئيسية: تميزت الأفكار الاقتصادية للفلاسفة اليونان بالخصائص التالية على العموم:

- تكامل التحليل الاقتصادي مع السياسة والأخلاق؛

- وضع مبادئ الملكية الخاصة وتقسيم العمل والنظرية النقدية؛

- تطوير مبادئ العدالة والإنصاف في العقود والتجارة، مما وضع أسسا مبكرة لنظريات القيمة والتبادل؛

- التركيز على تنظيم الأسرة والدولة، مع التأكيد على الترابط بين الظواهر الاقتصادية، مما يعكس بساطة البيئة الاقتصادية المتمثلة في دول ذات مدن صغيرة وصناعات محدودة.

2- أهم المفكرين وآراؤهم: يعتبر أرسطو وأفلاطون أهم المفكرين، بالإضافة الى زينوفون:

2-1- الفكر الاقتصادي لأرسطو: قدم أرسطو (384-322 ق.م) مساهمات كبيرة في أسس الفكر الاقتصادي من خلال تحليله للملكية والتبادل والثروة:

- **الملكية الخاصة:** كان أرسطو مدافعا قويا عن الملكية الخاصة، حيث جادل بأنها تؤدي إلى تحديد المسؤولية (الفردية) وزيادة الانتاجية. لقد رأى بأن الملكية الجماعية (كما اقترحها أفلاطون) تؤدي إلى الإهمال والصراعات بسبب عدم وضوح المسؤولية. كما أكد بأن الملكية الخاصة تعزز الأخلاق والإحسان.

- **تقسيم العمل:** أدرك أرسطو الأساس الطبيعي لتقسيم العمل، والذي ينشأ من الاحتياجات المتبادلة في المجتمع. لاحظ أن التخصص يساهم في الإنتاجية والتبادل الاقتصادي. ومع ذلك، كان يعتبر أن أنشطة اقتصادية مثل التجارة أقل "فضيلة" من الزراعة.

- **النقود والفائدة:** اعترف أرسطو بأهمية النقود في تسهيل التجارة وتخزين القيمة. لكنه عارض الربا (الفائدة)، واصفًا إياه بـ"غير الطبيعي"، لأن النقود أُنشئت للتبادل وليس لتحقيق الربح؛ وكان لهذا الموقف من الفائدة تأثير كبير على الفكر الاقتصادي في أوروبا في العصور الوسطى. كما أنه كان يعتقد بأن السعي وراء الثروة دون حدود يمكن أن يؤدي إلى الفساد الأخلاقي والضرر المجتمعي.

2-2- الفكر الاقتصادي لأفلاطون

يعتبر أفلاطون (427-347 ق.م) معلم أرسطو، ولكن رؤيته مختلفة تماما للاقتصاد، وتستند أساسا إلى أفكاره الفلسفية والسياسية:

- **الملكية الجماعية والخاصة:** دعا أفلاطون في كتابه "الجمهورية" إلى الملكية الجماعية بين طبقة الحكام (الأوصياء)، حتى لا ينخرطوا في صراعات ناتجة عن الثروة والتملك الخاص، لكنه سمح في المقابل بالملكية الخاصة للعمال والمزارعين، الذين اعتبر عملهم ضروريا للاقتصاد. لقد جادل بضرورة أن تخدم الملكية الصالح العام.

- **تقسيم العمل:** شدد أفلاطون على أهمية التخصص، معتبرا أن الأدوار المهنية للأفراد تحددها الاختلافات بين قدراتهم الفردية. كانت هذه القاعدة أساس رؤيته لمجتمع مثالي، حيث يساهم كل شخص وفقًا لطبيعته وقدراته؛ وربط التخصص بالتقدم الاقتصادي.

- **التجارة والنقود:** اعتبر أفلاطون التجارة عنصرا ضروريا في التنظيم الاقتصادي، لكنه انتقد آثارها الأخلاقية، واقترح نظاما نقديا تديره الدولة للحد من الفساد وضمان الاستقرار.

- **المحافظة الاقتصادية:** كان "المجتمع المثالي" لأفلاطون ثابتا ومقاوما للتغيير؛ لقد خشي أن تؤدي الابتكارات والنمو الاقتصادي إلى زعزعة النظام الهرمي لدولته المثالية. عكست هذه المقاربة المحافظة دعواته الى الاعتماد المحدود على التجارة الخارجية والسيطرة على السكان (يكون للدولة عدد محدود من الأفراد يمكن ادارته).

2-3- فكر زينوفون Xenophon (430–354 ق.م) :

كتب زينوفون بشكل واسع عن الاقتصاد العملي في أعمال مثل *Oeconomicus*، حيث ناقش إدارة المنزل وتخصص العمل، وحتى السياسات الاقتصادية العامة لتحسين الإيرادات الحكومية.

ثانيا- الفكر الاقتصادي الروماني

1- الخصائص الرئيسية: فيما يلي الخصائص الرئيسية للفكر الروماني في المجال الاقتصادي:

- ركز على الزراعة والقانون والإدارة، فكان عمليا أكثر مقارنة باليوناني؛ كالتركيز على الإنتاجية الزراعية ومعالجة قضايا ملكية الأراضي وتأجيرها.
- تضمنت المساهمات الاقتصادية تطوير القانون الروماني، الذي أثر على الممارسات التجارية الأوروبية لاحقًا، خاصة من حيث ادخال حقوق الملكية الخاصة وإنفاذ العقود.
- دعا إلى الإنصاف في التجارة والاعتدال في الاستهلاك، كما اعتُبرت الأنشطة الاقتصادية أدوات للحفاظ على النظام الاجتماعي والهياكل الهرمية للامبراطورية الرومانية

2- مساهمات المفكرين الاقتصاديين الرومان:

من أهم المفكرين في هذا العصر شيشرون و الكتّاب الزراعيون مثل كاتو وفارو وكولوميلا ؛ سنورد فيما يلي أهم المساهمات الفكرية مع أصحابها.

- الأسس القانونية للاقتصاد: وضع القانون الروماني الأساس لمفهوم حقوق الملكية الخاصة كحقوق مطلقة، مما منح المالكين الحرية في استخدام ممتلكاتهم كما يرونه مناسبا؛ هذه المبادئ أثرت على الفكر القانوني والاقتصادي الغربي اللاحق. كما ساهم الرومان في تطوير مفهوم العقود كوسائل لنقل الملكية والقوانين التجارية.

- اقتصاديات الزراعة: كتب مفكرون مثل كاتو (Cato) وفارو(Varro) وكولوميلا (Columella) حول الزراعة، ركزوا فيها على تحسين الأساليب الزراعية وإصلاح ملكية الأراضي ومعالجة الآثار الاقتصادية لاستخدام الأراضي. على سبيل المثال:

- شجع ماركوس كاتو المزارع الصغيرة على حساب المزارع الكبيرة وأكد على الاكتفاء الذاتي؛
- دعا فارو إلى "العودة إلى الأرض" لمواجهة الفقر والحفاظ على ثروة الدولة؛
- ركز كولوميلا على أفضل الممارسات في إنتاج الزيتون وتربية الماشية، وانتقد إهمال زراعة الحبوب.

- القانون الطبيعي والعدالة العالمية: أكد شيشرون (Cicero) على القانون الطبيعي، مشيرا إلى أن العدالة والمبادئ الأخلاقية تتجاوز الحدود الوطنية.

- المفاهيم الاقتصادية في الفقه الروماني: قدم الفقهاء الرومان تعريفات ومبادئ أصبحت أساسا لتحليل الأنظمة السوقية في فترات لاحقة، وطوروا مفاهيم عن الأسعار والنقود والقروض والودائع عكست فهما للعلاقات والظواهر الاقتصادية.

- الاعتدال والثروة: ناقش المفكرون الرومان مثل شيشرون وسينيكا (Seneca) أهمية الاعتدال في الثروة. شجع شيشرون على كسب الثروة بطرق تحقق الفائدة للمجتمع والأسرة، بينما انتقد سينيكا الثروة المفرطة وشدد على الاكتفاء الذاتي.

الأسس الفلسفية للعلاقات الاقتصادية: دمج الفكر الاقتصادي الروماني رؤى فلسفية حول العلاقات الاقتصادية. على سبيل المثال، اعتبر شيشرون أن ثروة الأفراد تسهم في ازدهار الدولة، مما يدمج بين المصالح الفردية والجماعية.

الفكر الاقتصادي خلال العصور الوسطى: المدرسيون (السكولائيون The scholastics**):**

لقد وافق الفكر السكولائي فترة العصور الوسطى التي امتدت بين القرنين الخامس والخامس عشر ميلادي. خلال هذه الفترة الطويلة عاشت أوروبا الغربية مرحلتي النظام الاقطاعي الزراعي ثم الحرفي.

أولا- التعريف بفكر المدرسيين ورواده:

ينظر البغض إلى فكر المدرسيين على أنه اندماج لثلاثة مصادر فكرية مختلفة: فلسفة أرسطو والقانون الروماني وأفكار آباء الكنيسة. تبنى أصحاب هذا المذهب المفهوم اليوناني الروماني للقانون الطبيعي؛ فقد اقتنعوا بوجود قواعد للسلوك البشري ("أسستها" الطبيعة والعقل البشري) تقوم على معايير موضوعية أبدية.

لقد كانت ذروة الفكر المدرسي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ميلادي، ويمثل صعود وتراجع مدرسة سالامانكا (فكر علماء الديانة المسيحية الاسبان) في القرن السادس عشر نهاية عصر الفكر المدرسي.

كان القديس توما الأكويني St Thomas d'Aquin (1225-1274) الممثل الرئيسي لهؤلاء الفلاسفة السكولائيين، إلى جانب المفكرين: القديس برناردان (1380 - 1444) والقديس أنطونان (1389-1459).

ثانيا- أهم الخصائص المميزة للفكر السكولائي:

يمكن القول عموما بأنه على طول الفترة الممتدة من قدماء الإغريق إلى المدرسيين تميز الفكر الاقتصادي بالتركيز على الأخلاق أكثر من التحليل، أي أكثر من دراسة أسباب وتأثيرات الظواهر الاقتصادية. وكان النقاش حول مسائل التجارة وأشكال التبادل يدور في إطار محاولة جعل قضايا الملكية الخاصة وتراكم الأموال متماشية مع المعايير المجتمعية والدينية في العصور القديمة والقرون الوسطى.

ثالثا- المساهمات الفكرية للمدرسيين في المجال الاقتصادي:

أدلى السكولائيون بآراء حول بعض القضايا الاقتصادية، سنركز فيما يلي على أهم تلك القضايا.

1- الملكية الخاصة:

كان المدرسيون يعتقدون بأن الملكية الخاصة مفيدة وفعالة، وكان مرجعهم في ذلك أساسا هو فكر أرسطو. لقد قدم توما الأكويني الحجج الثلاث التالية دفاعا عن الملكية الخاصة:

- الملكية الخاصة هي مصدر للسلام والملكية المشتركة هي مصدر للصراع؛
- اهتمام كل الأفراد بكل شيء (كل الأمور) سيؤدي إلى الفوضى، لذلك يفضل تقسيم المسؤوليات؛
- عندما يكون هناك شخص واحد فقط هو المسؤول فإنه يولي المزيد من الاهتمام لعمله.

هذا الموقف من الملكية الخاصة يعكس جانب المنفعة منها قبل كل شيء، ويتم تعزيزه بدوافع أخلاقية.

2- التجارة:

لقد أكد القديس أوغوستين (St Augustin) منذ بداية القرن الخامس بأن: "الأعمال فعل محايد من وجهة نظر الأخلاق، مثل الأكل، يمكن أن يكون جيدا أو سيئا وفقًا للغايات والظروف". كما قدم توما الأكويني بعض التوضيحات بخصوص الأعمال التجارية، فهذه الأخيرة تكون عنده مبررة بالأسباب التالية:

- نقل البضائع من الأماكن التي تتواجد فيها بكثرة إلى الأماكن التي يوجد فيها نقص منها؛
- تخزين البضائع والحفاظ عليها؛
- استيراد البضائع التي يحتاجها البلد.

3- النقود:

يتم تحليل قضية النقود على أساس أعمال أرسطو، فالنقود أولا أداة للمبادلة، ولكنها أيضا مخزن للقيمة ووحدة للحساب. كما قام السكولائيون بتحليل الظواهر النقدية المهمة المرتبطة بارتفاع الأسعار. فقد بين Azpiculta عام 1553 أنه إذا كانت الأسعار منخفضة في فرنسا ومرتفعة في إسبانيا، فذلك لأن المعادن النفيسة نادرة إلى حد ما في فرنسا ومتوفرة في إسبانيا، أي وجود علاقة عكسية بين كمية المواد والقوة الشرائية للنقود.

4- القيمة:

لقد استفادت نظرية القيمة من مساهمات أرسطو والقديس أوغسطين وسان توما الأكويني. الفكرة الرئيسية هي أن القيمة التي تعطى للأشياء تعتمد على المنفعة المحققة منها وهي منفعة ذاتية، فلكل ما يرغب فيه.

ويؤكد برناردان (St Bernardin de Sienne) أنه يتم تقييم سلع السوق وفقًا لاستخدامها. ثم يميز بين الأبعاد الثلاثة للقيمة السوقية (Virtuositas - raritas - complacabilitas): يتم تحديد القيمة السوقية فعلا من خلال جودة السلعة (la virtuositas)؛ كما يعتمد تحديد القيمة على ندرة السلعة (raritas)؛ ويتوقف التحديد أخيرا على المتعة المنتظرة أو الاشباع المحقق من استعمال الشيء (complacabilitas).

5- الأسعار:

تتبع نظرية الأسعار للمدرسيين بشكل طبيعي نظريتهم للقيمة، حيث يعتمد السعر على التقييم المشترك الذي يقوم به الأعوان للسلعة، والسعر العادل (أو المناسب) هو سعر السوق (الذي يتحدد تلقائيا). وإذا كانت هناك حالة احتكار (مثلا) فيتم اللجوء إلى السعر القانوني. ومع ذلك فالمدرسيون حذرون من قضية التسعير.

6- الأجور والربح:

الأجور هي ثمن العمل، وطالما يتم تحديد قيمتها على أساس التبادل الحر بين المستخدمين وأصحاب العمل فستكون الأجور عادلة. ويكون الربح عادلا اذا كان مصدره عمليات البيع والشراء التي تتم بالأسعار العادلة.

كما اعتبر توماس الأكويني أيضا أنه يمكن للشخص تحقيق ربح طالما أنه يستخدمه في أحد الأغراض المشروعة، كضمان قوت أفراد المنزل أو تأمين حاجيات البلاد من المواد الغذائية الأساسية.

7- الفائدة:

منذ القرن الرابع منع رجال الديانة المسيحية القروض بفائدة، وقد كانوا عندها من كبار ملاك الأراضي. وكما هو الحال لدى أرسطو، كان المدرسيون في الأساس ضد التعامل بـ"الربا"، ذلك أن النقود كان يُنظر إليها على أنها مجرد وسيلة للتبادل، فقد كان من غير الطبيعي ومن الجشع محاولة كسب المال بشكل مضاعف.

ولكن ابتداء من القرن الثاني عشر بدأت الحياة الاقتصادية تتطور وتزدهر في أوروبا بعد فترة من الاكتفاء الذاتي النسبي، وأصبح البعض من المفكرين ينظر إلى الفائدة على أنها عامل ايجابي في هذا التطور.

بمعنى آخر، يمكن أن تكون الفائدة "عادلة" لدى المدرسيين إذا تحقق ما يلي:

- إذا كانت تعوض عن الخسارة التي يتحملها المقرض بسبب القرض أو تعوض النقص الحاصل؛
- إذا كانت هذه الفوائد مبررة بالمخاطر التي يتعرض لها المقرض.

وبالفعل، فقد قدم العديد من المدرسيين استثناءات سمحوا فيها بالفائدة؛ فإذا لم يسدد المقترض دينه في الوقت المحدد، يجوز للمقرض المطالبة بفائدة على السداد المتأخر. واعتبر آخرون بأنه إذا استطاع المُقرض أن يبين بأن القروض تؤدي إلى تحميله تكاليفا (حتى في شكل خسارة أرباح)، فقد يطالب بالتعويض في شكل فائدة.

الخلاصة:

لقد تطور الفكر الاقتصادي في الحضارات الإغريقية والرومانية وأوروبا في العصور الوسطى بشكل تدريجي؛ حيث كان الفكر القديم مرتبطًا بالدين والفلسفة ولم يتبلور كنظرية مستقلة إلا في وقت لاحق. عند الإغريق، شكلت أفكار أفلاطون وأرسطو الأسس الفكرية؛ تميز الفكر اليوناني بالبعد النظري والفلسفي مع تأكيد أرسطو على الملكية الخاصة كأداة لتحسين الإنتاجية والمسؤولية الفردية، بينما عارض أفلاطون الملكية الخاصة للطبقة الحاكمة وذلك لتحقيق العدالة الاجتماعية، كما ركز على التخصص. أما الرومان، فقد ركزوا بشكل أكبر على التطبيق العملي، مع تطور قوانينهم لتعزيز حقوق الملكية والعقود التجارية، بالإضافة إلى التركيز على تحسين الإنتاج الزراعي. امتزجت الفلسفة بالقانون في الفكر الروماني لإرساء قواعد العدالة الاقتصادية والاجتماعية، مما أثر لاحقًا على الفكر الاقتصادي الأوروبي في العصور الوسطى.. هذا الأخير تأثر بالمفكرين المدرسيين الذين دمجوا بين فلسفة أرسطو وأفكار الكنيسة. تميزت هذه الفترة بتركيزها على الأخلاق في الاقتصاد، حيث ناقش المدرسيون قضايا كالملكية الخاصة والتجارة والقيمة والنقود. أبرز الفلاسفة السكولائيين، مثل القديس توما الأكويني، قدموا دفاعًا عن الملكية الخاصة واعتبروها مصدرًا للسلام والتنظيم. كذلك رفض السكولائيون الربا، معتبرين أن النقود ليست وسيلة للربح، بينما تطورت نظرتهم بمرور الوقت ليتقبلوا الفائدة بشروط معينة، كالخسارة المحتملة للمقرض.